تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغا أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصري وقتادة وغيرهم { إن كادت لتبدي به } أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن ا ثبتها وصبرها قال ا تعالى : { لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه } أي أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها : { قصيه } أي اتبعي أثره وخذي خبره وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك { فبصرت به عن جنب } قال ابن عباس : عن جانب وقال مجاهد : بصرت به عن جنب عن بعد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها قال ا تعالى : { وحرمنا عليه المراضع من قبل } أي تحريما قدريا وذلك لكرامته عند ا وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ولأن ا سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعد ما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه { قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون } قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلا وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لي بعلا وأولادا ولا أقدر على المقام عندك ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها ا بعد خوفها أمنا في عز وجاه ورزق دار ولهذا جاء في الحديث [مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها] ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه وا أعلم فسبحان من بيده الأمر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا وبعد كل ضيق مخرجا

ولهذا قال تعالى : { فرددناه إلى أمه كي تقر عينها } أي به { ولا تحزن } أي عليه { ولتعلم أن وعد ا حق } أي فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعا وشرعا وقوله تعالى : { ولكن أكثرهم لا يعلمون } أي حكم ا في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والاخرة فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر كما قال تعالى : { وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم } وقال تعالى : { فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل ا فيه خيرا كثيرا }